الإلحاد في العالم الإسلامي

واجهت فكرة الإلحاد جدارًا صعبًا في بداية انتشار الاستعمار الأوروبي لعدد من الدول الإسلامية، ويعتقد معظم المستشرقين والمؤرخين أن الأسباب التالية لعبت دورًا مهمًّا في صعوبة انتشار فكرة الإلحاد الحقيقي في العالم الإسلامي حتى يومنا هذا:

• قلة أعداد العلماء وضعف المستوى التعليمي في العالم العربي والإسلامي بشكل عام، حيث أشارت دراسة نشرت في مجلة الطبيعة (Natuer) أن الغالبية العظمى من العلماء والعباقرة ملحدون، وأن نسبة التدين انخفضت بين العلماء من ٧٠٪ عام ١٩١٤ إلى ٢٧٪ عام ١٩٩٨م، لكن الإحصائيات الحديثة أثبتت عكس ذلك حيث إن ٦٠٪ من العلماء المرموقين مؤمنين بوجود الخالق وذلك من خلال دراسة أجراها معهد Pew إذ وجدوا أن من كل عشرة علماء هناك أربعة ملاحدة فقط.

• طبيعة المجتمع الشرقي الذي هو عبارة عن مجتمع جماعي بعكس الأوروبي الذي يتغلب عليه صفة الانفرادية فالإنسان الشرقي ينتمي لمجتمعه وأي قرار يتخذه يجب أن يراعي فيه مصلحة مجموعة أخرى محيطة به قبل مصلحته أو قناعته الشخصية، فالإنسان الغربي لديه القدرة على إعلان الإلحاد كقرار فردي بعكس الإنسان الشرقي الذي سيصبح معزولًا عن أقرب المقربين إليه إذا أعلن إلحاده.

• بعد إسقاط الدولة العثمانية حاول مصطفى كمال أتاتورك (١٩٣٨ – ١٨٨١) بناء دولة علمانية وإلحاق تركيا بالمجتمع الأوروبي، فقام بإغلاق جميع المدارس الإسلامية وشملت المحاولة منع ارتداء العمامة أو رموز أخرى فيها إشارة إلى الدين.

• أما في إيران فقد تأثر رضا خان الذي حكم من عام (١٩٢٥ - ١٩٤١) بمبادرة أتاتورك فقام بمنع الحجاب، وأجبر رجال الدين على حلق لحاهم، وقام بمنع مواكب العزاء أثناء عاشوراء، وبالرغم من أن هذه المحاولات كانت مفاجئة وقهرية ومعارضة للإسلام الذي ظل منتشرًا لأكثر من ألف عام فإنها حققت هدفها وهو منع رموز الدين في المجال العام، وإعادة بناء هذين المجتمعين الإسلاميين على أساس العلمانية وتهميش العناصر الدينية فيها، ومع أن فكرة العلمانية التي انتشرت في أوروبا كانت موجهة ضد تدخل الكنيسة الكاثوليكية في السياسة والعلم، تم تعميم هذه الظاهرة وتطبيقها على العالم الإسلامي من قِبل بعض السياسيين المتأوربين كأتاتورك والشاه وغيرهما، وإن مبادئ العلمانية كفصل الدين عن الدولة لا يتناسب مع الدول الكاثوليكية فحسب بل إنه يمكن تطبيقها على المجتمعات الدينية جميعها كذلك، فإذن لا تمثل العلمانية ظاهرة تاريخية أوروبية غير متعلقة بالعالم الإسلامي لأنها صارت ظاهرة عالمية وصارت الدولة العثمانية غير الدينية تؤدي دورًا محوريًّا في الحداثة الإسلامية.

أدى استعمال القوة في فرض الأفكار العلمانية في إيران وتركيا إلى نتائج عكسية، وتولد نواة حركات معادية لهذه المحاولات واستقطبت مدينة قم في إيران كل الحركات المعادية لحكومة طهران، ومن الجدير بالذكر أن سائر المرجعيات الدينية الشيعية في إيران كانت لا تزال تمتلك نفوذًا كبيرًا على صنع القرار السياسي، ومن الأمثلة المشهورة على ذلك كانت الفتوى التي صدرت في سامراء وأحدثت ضجة في إيران عام ١٨٩١م وفيها أفتى «محمد حسن شيرازي» الإيرانيين بوجوب مقاطعة تدخين التبغ وحدثت بالفعل مقاطعة واسعة النطاق لمدة شهرين حيث اضطر الشاه على أثرها لإلغاء عقود تجارية ضخمة مع عدد من الدول الأوروبية حيث كان الشاه في ذلك الوقت يحاول الانفتاح على الغرب.

من أحد أسباب عدم نجاح الفكر الإلحادي والعلماني في اختراق المجتمع الإسلامي ظهور الحركات الإسلامية التجريدية، والتي حاول أصحابها إعادة إحياء الروح الإسلامية بين المسلمين بعد قرون من «الانحطاط».

فمن أفغانستان ظهر جمال الدين الأفغاني (١٨٨٧ - ١٨٣٨) ومن مصر محمد عبده (١٩٠٥ - ١٨٤٩) وفي الهند ظهر محمد إقبال (١٩٣٨ - ١٨٧٧) وشهد القرن العشرون صراعًا فكريًّا بين الفكر الإسلامي وأفكار أخرى مثل الشيوعية والقومية العربية، وعانى فيه الإسلاميون من القمع السياسي الشديد، ومن الملاحظ أنه حتى الشيوعين والقوميين لم يجعلوا من الإلحاد مرتكزًا فكانت هناك ظاهرة غريبة بين بعض الشيوعيين حيث كان البعض منهم يتشبث بالإسلام كعقيدة دينية إلى جانب اقتناعه بالشيوعية كمذهب اقتصادي، ولهذا السبب تجد في مراكز الحزب الشيوعي في العالم العربي مصلى لإقامة الصلاة.